بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين
محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين

مقالات

نشرة تعالج مقولات فكرية وثقافية
ومفاهيمية مؤثرة في مجتمعاتنا المتموّجة

سلسلة: الخطاب الديني

خطاب الشعائر الدينية

تبرز أهمية خطاب الشعائر الدينية في توجيه المؤمنين وتعبئتهم تجاه القيم الدينية والإنسانية وتثبيت هويتهم العقائدية وسلوكهم الشخصي والاجتماعي، وهو يتبدّى من خلال مجموعة من الشعائر على رأسها الأدعية والزيارات ونصوصها الشريفة.

المحرر:
صادق جعفر

رضوى
للانتاج الثقافي

خطاب
الشعائر الدينية

في هذه المقالة :

ما هي طبيعة الخطاب الديني الواصل إلينا عبر الأدعية والأوراد والمناجاة؟ وما هي طبيعة الخطاب الديني الوارد في نصوص الزيارات الشريفة لأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام؟

المحتويات:

- خطاب الصحيفة السجادية
- لماذا الخطاب بالدعاء؟
- أصناف الخطاب الدعائي
- خطاب الزيارات

تبرز أهمية خطاب الشعائر الدينية في توجيه المؤمنين وتعبئتهم تجاه القيم الدينية والإنسانية وتثبيت هويتهم العقائدية وسلوكهم الشخصي والاجتماعي، وهو يتبدّى من خلال مجموعة من الشعائر على رأسها الأدعية والزيارات ونصوصها الشريفة.

إن خطاب ونصوص الأدعية والزيارات يتميز على خطاب ونصوص الروايات والأحاديث التي وردت عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بأربعة أمور:

١. أنه خطاب ابتداري يصدر بمبادرة من أهل البيت عليهم السلام، فهو ليس إجابة ظرفية أو سريعة أو طارئة حتّمها سؤال أو استفسار من قبل أحد زوار الأئمة عليهم السلام أو من قبل أحد اتباعهم أو مناوئيهم أو عوام الناس، بحيث تكون الإجابة مقتصرة على ما يتطلبه الظرف المكاني والزماني والبشري (أي مستوى السائل ومتلقي الإجابة).

٢. أنه خطاب ممنهج، فحيث أنه لا يتعلق بظرف معين فهو يصدر ضمن منهجية متكاملة من بدايته وحتى خاتمته، ليوضح فكرة أو مفهوم أو نظرية أو منظومة من القواعد في موضوع معين دون أن تُبتر هذه المنظومة بحديث أو تدخل أو مقاطعة أحد المستمعين أو الجمهور أو غيرهم.

٣. أنه خطاب ذو مستوى رفيع جداً من الأدب اللغوي فهو لا يتخاطب مثلاً مع عوام الناس كما هي غالبية الروايات بحيث يضطر لمراعاة مستوياتهم الذهنية واللسانية والاجتماعية، وإنما في الأدعية مثلاً يُخاطب الله تبارك وتعالى بلسان بليغ وفصيح وراق جداً، وفي الزيارات يتكلم بتوصيفات للأئمة وأهل بيت النبوة عليهم السلام بصورة بلاغية ودقائق توصيفية قد لا يلتقطها إدراك العوام من الناس إلا بعد التأمل وإحكام العقل والتدبر فيها.

٤. إنه خطاب صريح لا يستدعي التقية في غالبية نصوصه، وبالتالي فهو يفصح عن العديد من الحقائق والتوصيفات والمفاهيم العقائدية والإيمانية والمواقف المبدئية والسلوكية دون مواراة أو مراعاة لظرف ما قد يمنع مثل تلك التصريحات.

ولدى الشيعة مئات بل آلاف النصوص الدعائية،

والتي أُنشأت من قبل أئمتهم عليهم السلام، للتلاوة في مختلف الأوقات والظروف والمناسبات، فالدعاء مستحب في كل وقت وخاصةً بعد الصلوات المفروضة والمسنونة، وحين إفطار الصائم، وفي ليلة الجمعة ويومها، وفي أثناء أداء شعائر الحج، وفي أيام وليالي شهر رمضان المبارك، وفي أمثالها من الأوقات التي ندب الشرع إلى الدعاء فيها والتي تشكل السياق الروحاني الملائم لإجراء الدعاء.

وجوهر نص خطاب الأدعية هو توحيد الله سبحانه وتعالى والخضوع له والتوجه إليه في أمور حياتنا كلها وربطها به والتوكل عليه، والاسترشاد بها في طريقة التصرف والتعامل مع أنفسنا ومع الآخرين ومع قضايا الحياة الخاصة والعامة.

وهذا المضمون يتكرر تقريباً بشكل موجز أو مُفصّل في غالبية الأدعية، سواء منها التي تدعوا لمطالب عامة كالرحمة والهداية والأمان والعافية، أو لمطالب خاصة كالنجاة من عدو أو سداد دين أو الأمان في السفر أو غير ذلك.

وتكرار هذه الأدعية والمناجاة التي تعبر عن التواصل مع الله سبحانه وتعالى في كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وعلى مدى الحياة كلها يُكرّس قيم الإيمان والتوحيد والعقيدة، ويُحصّن الفكر والنفس والسلوك من الانحرافات والشبهات العقائدية والسلوكية والعبادية ويحافظ على هوية المؤمن، خصوصاً وأن الغالبية الساحقة من هذه الأدعية توجه الداعي إلى الارتباط برسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين من خلال إدراج وتكرار الصلاة عليهم باعتبارهم الباب والوسيلة الصحيحة التي ترشد المؤمنين إلى حقيقة التوحيد وقيم الإيمان.

وفيما يلي تحليل لخطاب الدعاء ومنهجيته الإرشادية نستقيه من خطاب الصحيفة السجادية للإمام السجّاد علي بن الحسين زين العابدين صلوات الله عليه.

- خطاب الصحيفة السجادية:

عند النظر إلى الصحيفة السجادية نجد بأنها يمكن أن تشكّل منهج متكامل للحياة الإيمانية القائمة على الدين وعقيدة التوحيد، والتساؤل الذي قد يرد هنا، هو كيف للدعاء أو لمجموعة أدعية أن تشكّل منهجاً للحياة؟ وبصيغة أخرى: لماذا لم يأت هذا المنهج في صورة إرشادات وأوامر ومناهي وأسئلة وأجوبة مثلاً، بدلاً من صورة الأدعية والمناجاة؟

- لماذا الخطاب بالدعاء؟

استعمل الإمام السجّاد عليه السلام الدعاء كخطاب إحيائي للعقيدة ولمناهج الدين ولتغيير النفس البشرية نحو الأفضل، وذلك لعلل عديدة، منها:

١. أن الدعاء فيه طلب، فحين يدعو الإنسان فإن أغلب دعائه يتمحور حول طلبات يطلبها من رب العالمين، وهذه الطلبات قد تكون دنيوية مثل «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِيَ الْعَافِيَةَ مِنْ دَيْنٍ تُخْلِقُ بِهِ وَجْهِي وَيَحَارُ فِيهِ ذِهْنِي وَيَتَشَعَّبُ لَهُ فِكْرِي وَيَطُولُ بِمُمَارَسَتِهِ شُغْلِي، وَأَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ هَمِّ الدَّيْنِ وَفِكْرِهِ وَشُغْلِ الدَّيْنِ وَسَهَرِهِ،»(دعاء لقضاء الدين)، أو أخروية مثل «اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ تَعْفُ عَنَّا فَبِفَضْلِكَ وَإِنْ تَشَأْ تُعَذِّبْنَا فَبِعَدْلِكَ، فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ وَأَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجَاوُزِكَ»(دعاء اللجأ إلى الله)، أو مسلكية مثل «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَيِّرْنَا إِلَى مَحْبُوبِكَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَأَزِلْنَا عَنْ مَكْرُوهِكَ مِنَ الْإِصْرَارِ»(دعاء طلب المغفرة)، وغيرها.

٢. الدعاء يتضمن رجاء في الإجابة والتحقق من الله تبارك وتعالى، ويُراعى فيه الإلحاح في الطلب إلى الله تعالى لأنه يكرّس المطلب الخيّر في نفس الدّاعي، فعن الإمام الصادق عليه السلام «إذا دعوت فأقبل بقلبك، ثم استيقن الإجابة»، وقال صلى الله عليه وآله «إن الله تعالى يحب الملحّين في الدعاء».

٣. الدعاء يتطلب توجّه الداعي بنفسه وعقله إلى المطالب التي يدعو لها، فعن سليمان بن عمرو، قال: سمعت

أبا عبدالله عليه السلام، يقول: «إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك، ثم استيقن الإجابة».

٤. روحانية وأدب الاتصال بالخالق تعالى، فالاتصال برب العالمين ومالك يوم الدين يتطلب أدباً عالياً وخلقاً رفيعاً أرفع من الاتصال بملوك وسلاطين الدنيا، ومن أهم هذه الآداب هو التسبيح والتمجيد لله تعالى قبل الدعاء، والشروع بالدعاء بالصلاة على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، وكثرة الاستغفار، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام «إذا أردت أن تدعو، فمجّد الله عزّ وجلْ، واحمده، وسبحّه، وهللّه، وأثن عليه، وصل على النبي وآله، ثم سلْ تُعطه».

٥. الدعاء فيه تذلل وكسر لعزة الإثم أو الإصرار على العصيان، والانكسار أمام الحق هو أول خطوة نحو تصحيح السلوك وإصلاح الذات وإحياء النفس، فعن الإمام الصادق عليه السلام، قال الله عزّ وجلْ لعيسى عليه السلام: «يا عيسى، هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشية».

٦. ويُراعى في الدعاء طهور البدن والنفس، فطهارة البدن تنبع من وضوء العبادة، وحلّية اللباس والطعام، وابتعاد البدن عن الآثام كالزنا وغيره، كما أن طهارة النفس تنبع من حسن السلوك وسلامة النيّة وصدق العمل، فعن الفضل بن شاذان، عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال في علة الوضوء: «لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار في مناجاته إياه، مطيعاً له فيما أمره، نقياً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتذكية الفؤاد، للقيام بين يدي الجبار».

٧. يُراعى في الدعاء أفضل الأوقات وهي أوقات العبادة وأمثالها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفين للشهادة، وعند دعوة المظلوم فإنها ليس لها حجاب دون العرش»، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أدّى لله مكتوبة، فله في أثرها دعوة مستجابة»، وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «دعوة الصائم يستجاب عند إفطاره».

- أصناف الخطاب الدعائي:

وقد احتوت الصحيفة السجادية الأصناف التالية من الخطاب الدعائي:

١. خطاب عقائدي مليء بمعارف التوحيد والحجج الإلهية على الخلق، كقوله عليه السلام «الْحَمْدُ لله الْأَوَّلِ بِلَا أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ بِلَا آخِرٍ يَكُونُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الْوَاصِفِينَ، ابْتَدَعَ بِقُدْرَتِهِ الْخَلْقَ ابْتِدَاعاً وَاخْتَرَعَهُمْ عَلَى مَشِيَّتِهِ اخْتِرَاعاً، ثُمَّ سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ إِرَادَتِهِ وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبَّتِهِ»(دعاء التحميد لله)، وأهمية هذا الخطاب أنه يعرّف العبد المؤمن بخالقه عبر ثقافة توحيدية صحيحة تربطه به من خلال قناة شرعية صافية والتي هي ثقافة أهل البيت عليهم السلام.

٢. خطاب تربوي تعليمي يقوم بتشكيل السلوك الإنساني بصورة سليمة، كقوله عليه السلام «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ وَسَدِّدْنِي لِأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ»(دعاء مكارم الأخلاق)، وهذا الخطاب يقوم بعملية لفظية تصويرية وإيحائية واضحة تحث الداعي إلى اقتفاء أثر السلوك المذكور وتلبّسه.

٣. خطاب متواضع بلسان المذنب المقصّر الذي لا

يفي لخالقه بفضل مهما فعل، وليس بلسان المستكبر الذي يرى لنفسه الفضل على من خلقه والعياذ بالله، كقوله عليه السلام «هَذَا مَقَامُ مَنْ تَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الذُّنُوبِ وَقَادَتْهُ أَزِمَّةُ الْخَطَايَا وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَقَصَّرَ عَمَّا أَمَرْتَ بِهِ تَفْرِيطاً وَتَعَاطَى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ تَغْرِيراً، كَالْجَاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ أَوْ كَالْمُنْكِرِ فَضْلَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ»(دعاء التوبة)، وهذا الخطاب يهيّئ النفس البشرية لتقبل النقد والتوجيه والإصلاح والإحياء.

٤. خطاب شعائري يوضح كيفية توظيف الشعائر العبادية واستغلالها بأفضل صورة ممكنة كدعائه عليه السلام حين دخول شهر رمضان «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلَالَ حُرْمَتِهِ وَالتَّحَفُّظَ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ، وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيكَ وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيكَ، حَتَّى لَا نُصْغِيَ بِأَسْمَاعِنَا إِلَى لَغْوٍ وَلَا نُسْرِعَ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْوٍ، وَحَتَّى لَا نَبْسُطَ أَيْدِيَنَا إِلَى مَحْظُورٍ وَلَا نَخْطُوَ بِأَقْدَامِنَا إِلَى مَحْجُورٍ، وَحَتَّى لَا تَعِيَ بُطُونُنَا إِلَّا مَا أَحْلَلْتَ وَلَا تَنْطِقَ أَلْسِنَتُنَا إِلَّا بِمَا مَثَّلْتَ، وَلَا نَتَكَلَّفَ إِلَّا مَا يُدْنِي مِنْ ثَوَابِكَ وَلَا نَتَعَاطَى إِلَّا الَّذِي يَقِي مِنْ عِقَابِكَ، ثُمَّ خَلِّصْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رِئَاءِ الْمُرَاءِينَ وَسُمْعَةِ الْمُسْمِعِينَ، لَا نُشْرِكُ فِيهِ أَحَداً دُونَكَ وَلَا نَبْتَغِي فِيهِ مُرَاداً سِوَاكَ»(دعاء دخول شهر رمضان)، وأهمية هذا الخطاب هو أنه يرشد الداعي والمؤمن إلى أفضل السبل للاستفادة من العبادات والشعائر الدينية التي تقرب إلى الله وتستدرج إنعامه وأفضاله تعالى.

٥. خطاب التقدير والامتنان والشكر للخالق تبارك وتعالى، كقوله عليه السلام «اللَّهُمَّ إِنَّ أَحَداً لَا يَبْلُغُ مِنْ شُكْرِكَ غَايَةً إِلَّا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِكَ مَا يُلْزِمُهُ شُكْراً، وَلَا يَبْلُغُ مَبْلَغاً مِنْ طَاعَتِكَ وَإِنِ اجْتَهَدَ إِلَّا كَانَ مُقَصِّراً دُونَ اسْتِحْقَاقِكَ بِفَضْلِكَ، فَأَشْكَرُ عِبَادِكَ عَاجِزٌ عَنْ شُكْرِكَ وَأَعْبَدُهُمْ مُقَصِّرٌ عَنْ طَاعَتِكَ، لَا يَجِبُ لِأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِاسْتِحْقَاقِهِ وَلَا أَنْ تَرْضَى عَنْهُ بِاسْتِيجَابِهِ، فَمَنْ غَفَرْتَ لَهُ فَبِطَوْلِكَ وَمَنْ رَضِيتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ»(دعاء الشكر)، وأهمية هذا الخطاب أنه يوضح للإنسان المؤمن حقيقة أفضال الله تعالى عليه وضرورة المحافظة على معرفة وعلاقة سليمة بخالقه ليسلك بتلك المعرفة والعلاقة سبل الخير والفلاح في الدنيا والآخرة.

٦. خطاب متأدّب يوضح كيفية الطلب من رب العالمين دون استحقاق من العبد المخلوق، كقوله عليه السلام «إِلَهِي أَحْمَدُكَ وَأَنْتَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِكَ إِلَيَّ وَسُبُوغِ نَعْمَائِكَ عَلَيَّ وَجَزِيلِ عَطَائِكَ عِنْدِي، وَعَلَى مَا فَضَّلْتَنِي بِهِ مِنْ رَحْمَتِكَ وَأَسْبَغْتَ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَتِكَ، فَقَدِ اصْطَنَعْتَ عِنْدِي مَا يَعْجِزُ عَنْهُ شُكْرِي وَلَوْلَا إِحْسَانُكَ إِلَيَّ وَسُبُوغُ نَعْمَائِكَ عَلَيَّ مَا بَلَغْتُ إِحْرَازَ حَظِّي وَلَا إِصْلَاحَ نَفْسِي، وَلَكِنَّكَ ابْتَدَأْتَنِي بِالْإِحْسَانِ وَرَزَقْتَنِي فِي أُمُورِي كُلِّهَا الْكِفَايَةَ وَصَرَفْتَ عَنِّي جَهْدَ الْبَلَاءِ وَمَنَعْتَ مِنِّي مَحْذُورَ الْقَضَاءِ»(دعاء التضرع)، وهذا الخطاب يولّد الذلة والخشوع لدى المؤمن تجاه خالقه وبارئه وسيده وصاحب الإنعام عليه، وكلما كان العبد ذليلاً أمام خالقه، جعله الله تعالى عزيزاً بين الناس وفتح أمامه أبواب الفلاح والكرامة وأحيا نفسه بالإيمان وعقله بالبصيرة وروحه بالصفاء والطهارة.

٧. خطاب مجتمعي يبين كيفية التعامل مع البيئة الاجتماعية المحيطة بالإنسان المؤمن وكيفية تحمله المسئولية تجاهها، كقوله عليه السلام «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوَلَّنِي فِي جِيرَانِي وَمَوَالِيَّ الْعَارِفِينَ بِحَقِّنَا وَالْمُنَابِذِينَ لِأَعْدَائِنَا بِأَفْضَلِ وَلَايَتِكَ، وَوَفِّقْهُمْ لِإِقَامَةِ سُنَّتِكَ وَالْأَخْذِ بِمَحَاسِنِ أَدَبِكَ فِي إِرْفَاقِ ضَعِيفِهِمْ وَسَدِّ خَلَّتِهِمْ وَعِيَادَةِ مَرِيضِهِمْ وَهِدَايَةِ مُسْتَرْشِدِهِمْ وَمُنَاصَحَةِ مُسْتَشِيرِهِمْ وَتَعَهُّدِ قَادِمِهِمْ وَكِتْمَانِ أَسْرَارِهِمْ وَسَتْرِ عَوْرَاتِهِمْ وَنُصْرَةِ مَظْلُومِهِمْ، وَحُسْنِ مُوَاسَاتِهِمْ بِالْمَاعُونِ، وَالْعَوْدِ عَلَيْهِمْ بِالْجَدَةِ وَالْإِفْضَالِ، وَإِعْطَاءِ مَا يَجِبُ لَهُمْ قَبْلَ السُّؤَالِ»(دعاء للجيران)، وهذا الخطاب مهم لأنه يدفع المؤمن الصالح إلى التفاعل مع بيئته الاجتماعية بأمثل السبل وبأقل الهفوات وبأخلص النيّات وأنقى المسلكيّات.

٨. خطاب تنبيهي عن الغفلة، ينبّه الإنسان المؤمن إلى ضرورة الالتفات إلى ما هو مطلوب منه ومستوجب عليه من المعروف صباحاً ومساءً وفي كل وقت ومكان، كقوله عليه السلام «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ، وَوَفِّقْنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا وَلَيْلَتِنَا هَذِهِ وَفِي جَمِيعِ أَيَّامِنَا لِاسْتِعْمَالِ الْخَيْرِ وَهِجْرَانِ الشَّرِّ وَشُكْرِ النِّعَمِ وَاتِّبَاعِ السُّنَنِ وَمُجَانَبَةِ الْبِدَعِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَحِيَاطَةِ الْإِسْلَامِ، وَانْتِقَاصِ الْبَاطِلِ وَإِذْلَالِهِ، وَنُصْرَةِ الْحَقِّ وَإِعْزَازِهِ، وَإِرْشَادِ الضَّالِّ وَمُعَاوَنَةِ الضَّعِيفِ وَإِدْرَاكِ اللَّهِيفِ»(دعاء الصباح والمساء)، وهذا الخطاب ينبّه الداعي إلى ضرورة الاحتياط لنفسه وصلاحه من بداية يومه إلى نهايته، ومن لحظة استيقاظه للصلاة وذكر الله تعالى وحتى نهاية أمره بالعودة إلى فراشه ليأخذ قسطاً من الراحة بنيّة الاستعداد للعمل الصالح في يوم تال وجديد من حياته.

ثانياً: خطاب الزيارات:

من المستحبات المؤكدة عند أتباع أهل البيت، زيارة رسول الله وآله الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، وهذه الزيارات لها مواقيت وظروف عامة وخاصة، وتزار بنصوص معينة هي جزء من خطاب يمكن أن نطلق عليه خطاب الزيارات.

فعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أنه قال: «إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبةً في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة» (الصدوق).

ولزيارة المقامات الشريفة لأئمة آل البيت عليهم السلام سنن وآداب عديدة يمكن أن نعتبرها جزء أساسي من سياق الخطاب بالمعنى العام، كالطهارة من الحدث الأكبر والأصغر، والاغتسال للزيارة، ولبس ثياباً طاهرة نظيفة جديدة، ويستحسن أن تكون بيضاء، وأن يقصِّر الزائر خطاه إذا خرج إلى الروضة المقدسة، وأن يسير وعليه السكينة والوقار، وأن يكون خاضعاً خاشعاً، وأن يتطيَّب بشي من الطيب - فيما عدا عند زيارة الحسين عليه السلام - وأن يشغل لسانه وهو يمضي إلى الحرم المطهر بالتكبير والتسبيح والتهليل والتمجيد، ويعطر فاه بالصلاة على محمد وآله عليهم الصلاة والسلام.

ونورد هنا رواية حول كيفية زيارة الإمام الحسين عليه السلام، حيث روي أن يونس بن ظبيان سأل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك، فقال عليه السلام: «إذا أتيت أبا عبدالله عليه السلام فاغتسل على شاطئ الفرات ثمّ البس ثيابك الطاهرة ثمَّ امش حافياً، فإنك في حرم من حرم الله ورسوله، وعليك بالتكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله كَثِيراً والصلاة على محمدٍ وأهل بيته، حتى تصير إلى باب الحائر، ثم قل: «السَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ الله وابْنَ حُجَّتِهِ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا مَلائِكَةَ الله وزُوَّارَ قَبْرِ ابْنِ نَبِيِّ الله».

ثم اخطُ عشر خطىً، ثم قف فكبر ثلاثين تكبيرة، ثم امش إلى القبر من قبل وجهه واستقبل وجهك بوجهه واجعل القبلة بين كتفيك، ثم تقول: (إلى آخر الرواية)... (ابن قولويه)

وخطاب الزيارات بصورة عامة هو خطاب عقائدي، يتمحور في جوهره حول موضوع الولاية والإمامة، وتأكيد الإتباع لرسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم، والتبرؤ من أعدائهم ومناوئيهم من المنافقين والضالين والمنحرفين والمجرمين.

ويوجد في نصوص الزيارات باختلافها خطاب عام هو عبارة عن السلام والتحية للشخصية التي تتم زيارتها، والشهادة له بالولاية والطاعة والتسليم لأمره المعبر عن أمر الله سبحانه وتعالى، والتأكيد على القيم التي قامت عليها حياة أهل البيت عليهم السلام وأدوارهم التشريعية.

وإلى جانب ذلك هناك خطاب خاص يتعلق بزيارة

كل شخصية من الشخصيات المعصومة عليهم السلام، فمثلاً نجد في نصوص خطاب زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تأكيد على ضرورة السير على هداه واتباع سنته الشريفة والاستعانة والتشفع به إلى الله سبحانه وتعالى، بينما في زيارات أمير المؤمنين عليه السلام نجد الإشارة بوضوح إلى ضرورة التصديق بولايته وتأكيد فكرة الإمامة والوصاية له بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا إلى جانب مواضيع كثيرة في النص تؤكد استحقاقه وجدارته عليه السلام لهذا المنصب دون غيره.

وفي زيارة الإمام الحسين عليه السلام هناك تأكيد على مظلوميته وكونه إنما خرج لإصلاح الأمة ولإنقاذ دين جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الانحراف والتأكيد على كونه سعى لذلك وهو مقيم للصلاة مؤت للزكاة آمر بالمعروف وناه عن المنكر.

أما في زيارات بقية الأئمة عليهم السلام فإشارات واضحة على أدوارهم في خدمة الدين والشريعة وعلى كونهم تراجمة وحي الله، ونصوص زيارات الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف تتطرق إلى مواضيع مهمة متعلقة به كتأكيد التصديق به والانتظار لأمره والدعاء له بالأمن والنصر له ولأوليائه وبالغلبة على أعدائه.

يبقى أن نشير إلى الزيارات الجامعة والتي تعم جميع آل البيت عليهم السلام، وخطابها من أبلغ الخطابات ويتم فيه ربط مسار حياتهم الشريفة كلهم ببعضهم البعض وكيف أنهم أدّوا ما عليهم من مسئوليات شرعية بأفضل الطرق وبالغوا في حفظ دين الله وشريعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قدموا انفسهم وأرواحهم ثمناً لذلك.

السياق العام لخطاب الشعائر الحسينية(بصفر)

يتميز سياق الخطاب الشعائري لإحياء ذكرى شهادة الإمام الحسين صلوات الله عليه بميزات خاصة، كإظهار الجزع والبكاء أو التباكي بالصياح ورفع الصوت والندبة والمبالغة في إظهار الحزن، والظهور بمظهر الكآبة والشعثة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب حزناً، والخروج في مسيرات العزاء وإقامة المجالس التي تقرأ فيها مصيبته ومقتله الفظيع والمصائب الشنيعة التي وقعت عليه وعلى أهل بيته وأنصارهم، وقد وردت هذه السلوكيات في أحاديث واضحة وصريحة بتلك الأفعال عن أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، كالرواية الواردة عن معاوية بن وهب في كامل الزيارات، حيث يلاحظ هنا التعابير التالية للإمام عليه السلام، حيث قال «اِغْفِرْ لِي وَلِإِخْوانِي وَزُوَّارِ قَبْرِ أَبِي الحُسِين بْن عَلِيّ صَلَواتُ الله عَلَيْهِما» للتأكيد على ضرورة الزيارة، وقال عليه السلام «الَّذِينَ أَنْفَقُوا أَمْوالَهُمْ» للندب إلى الإنفاق في سبيل إقامة هذه الشعيرة، «وَأَشْخَصُوا أَبْدانَهُمْ رَغْبَةً فِي بِرِّنا وَرَجاءً لِما عِنْدَكَ فِي وصْلَتِنا» وهذه الفقرة تؤكد على الشخوص والبروز والسير إلى الزيارة، «وَارْحَمْ تِلْكَ الأَعْيُنَ الَّتِي جَرَتْ دُمُوعُها رَحْمَةً لَنا» تشير إلى مكانة الدموع التي تذرف من أجل مصاب أبي عبدالله الحسين صلوات الله عليه، «وَارحَمْ تِلْكَ القُلُوبَ الَّتِي جَزَعَتْ وَاحْتَرَقَتْ لَنا» وهنا إشارة إلى تقدير الجزع الشديد واحتراق القلب، «وَارْحَمْ تِلْكَ الصَرْخَةَ الَّتِي كانَتْ لَنا» وهنا تقدير للصراخ والصياح ندبة للحسين عليه الصلاة والسلام.

وفي دعاء الندبة ترد في أحدى فقرات الدعاء أوامر تقرر السلوكيات الشعائرية التالية، حيث تقول «فَعَلَى الأطائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وعَلِيٍّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِما وآلِهِما فَلْيَبْكِ البَاكُونَ» وهي دعوة إلى البكاء على الحسين عليه السلام، «وإِيّاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النّادِبُونَ» دعوة إلى الندبة وهو ذكر الميت بأحسن أوصافه وأفعاله مع إظهار الحزن عليه(ابن منظور)، «ولِمِثْلِهِمْ فَلْتُذْرَفِ الدُّمُوعُ» دعوة لذرف الدموع، «ولْيَصْرُخِ الصارِخُونَ» دعوة صريحة للصراخ ورفع الصوت، «ويَضِجَّ الضَّاجُّونَ» دعوة للضجيج وهو الصياح عند المكروه والمشقة والجزع، «ويَعِجَّ العاجُّونَ» دعوة للعجيج وهو رفع الصوت والصياح إلى حد الجلبة.

- خاتمة: خطاب الشعائر وإحياء المعرفة العقائدية

إن خطاب الشعائر هو من أبرع وأدق أطر المعارف العقائدية، وهو يستبطن مضامين عالية كالإرشاد والإصلاح والهداية ولب المعارف التوحيدية، وإن انتشار نصوص الأدعية والزيارات بأصنافها في تراث آل البيت عليهم السلام أدعى بأن تجعلنا منتبهين إلى أهمية هذا الخطاب ومسترشدين بمحتوياته الواضحة وتعليماته المتينة وآدابه السامية.

مصادر:

١. الإمام السجّاد، أبي محمد علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام. **الصحيفة السجادية**، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، (تقديم: الصدر، الشهيد السيد محمد باقر)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢. ابن قولويه، أبي القاسم جعفر بن محمد. **كامل الزيارات**، الطبعة الأولى، (١٤١٧ه)، (تحقيق: نشر الفقاهة)، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.

٣. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، الطبعة الأولى، (٢٠٠٥م/ ١٤٢٦هـ)، (تدقيق: البقاعي، د. يوسف؛ شمس الدين، إبراهيم؛ علي، نضال)، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت.

٤. جعفر، صادق. **استراتيجية الشعائر الدينية عند الشيعة الإمامية - ما هي الآثار التي تولدها الشعائر الدينية في الفرد والمجتمع؟ وكيف تقوم بذلك؟**، الطبعة الأولى، (6102م/ 8341ه)، دار جيكور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥. الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه. **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، الطبعة الثانية، (1434هـ/ 2013م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

مقالات

تصدر عن:
رضوى للإنتاج الثقافي

للمراسلات:
maqalatnewsletter@gmail.com

توضيح:
محتوى **مقالات** متاح للراغبين في الاقتباس، مع ملاحظة نسب الاقتباسات إلى النشرة.

رضوى
للانتاج الثقافي